

النهضة الوطنية في عصر سعيد باشا

١٨٥٤ - ١٨٦٣

لواء ستار الجليل عبدالرحمن محمد بك الرافعي



للأسرة الراقية الفاروقية فضل لا ينكر في العلم
والجهاد في سبيل الإصلاح
ففي أوائل هذا القرن كان كثير من علماء
الراقية في أعلى مناصب القضاء الشرعي مصر
وغيرها من الاقطار الاسلامية وقتل أحد هؤلاء
العلماء المجتهدين منصب الاقل في الديار المصرية
وهذه الأسرة الراقية المجيدة تميزت بالانتماء
الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . ويحافظ
أبنائها على تقاليدهم الموروثة من طلب العلم
والتحلي بالنضال واستقامة السير وطهارة السيرة
في أحضان هذه الأسرة العلية نشأ الأستاذ
الكبير عبد الرحمن بك الرافعي حيث أنبته الله
نيانا حسنا فشب وترعرع على العلم والخير
والصلاح

ومن ذا الذي لم يقرأ أو لم يسمع منذ عشرين عاما مقالات الأستاذ عبد الرحمن الرافعي وخليفه في الصحف المصرية
والمناظر السياسية حيث تشعب منها أطوار الحقائق الباهرة فتثير العقول وتضيئ السبل وتردد الاوهام والشكوك
هكذا كانت الأستاذ الكبير يدأب على العمل في خدمة البلاد والبياد كما كان يدأب شقيقه المرحوم أمين بك
الرافعي الذي طالما جاهد في الله حتى جهاد حتى استأثرت به رحمة الله
ومن ذا الذي لم يتفقد عقله ولم تستضيئ نفسه بأثر هذين الأخوين العظيمين والمكوكبين الذين ؟
لقد كان الأستاذ عبد الرحمن الرافعي ولم يزل أستاذا من أكبر أستاذة الشعب ، لم تخل نفسه من الاستفادة من
آرائه ولم يزل بيت من بيوت الامة من تردد اسمه والاعجاب بمواقفه واستجدت بشجائمه
ولهذا تقدم الى حضرات القرائة الجليل الذي صاغته في أسلوب المذبح الحكم والبرهان على يد بناء
على رغبتنا في الحرر

من النهضة الوطنية ما يصدر عن الشعب وزعمائه ومنها ما يكون مصادره الملوك
والحكام ، ويمتاز عصر سعيد باشا بظهور نهضة وطنية جذرية بأن تعدد دورا من أدوار
الحركة القومية ، في تاريخ مصر الحديث . وترجع هذه النهضة ، إلى ميول سعيد باشا

ذاته ، فقد كان ذا صيغة وطنية مدوحة ، شأت فيه قبل أن يتولى الحكم ، ولازمته بعد أن تولاه ، ظهرت آثارها في كثير من إصلاحاته وأعماله ، وخلاصة هذه الخطبة أنه كان يميل بحوارحه إلى خير المصريين ورفاهيتهم ، و يعمل على تحريرهم من نير المظالم التي أصابتهم ، و يخفف عنهم عبء الضرائب التي ينوءون بها . و يث فيهم روح الوطنية ، و يشجعهم على تقلد المناصب العالية في الجيش والأدارة بعد أن كانت من قبل ، و قفا على الترك والشراكسة



(- سيد باشا ١٨٥٤ - ١٨١٦)

نشأته

هو ابن محمد على الكبير . ولد سنة ١٨٢٢ ونشأ في حجر أبيه محوطا بعطفه ورعايته وكان أبوه يعزه ، و يعنى بتر بته وتثقيفه ، وتنشئته النشأة الحسنة ، وقد اختار له السلك البحري ، فدربه على فنون البحرية وجعل شأنه فيها كشأن تلاميذها ، وامل هذه النشأة مما حجب إلى نفسه مبادئ الديمقراطية . فقد كان أثناء دراسته ومرانه ، زميلا لطائفة من التلاميذ ، ممن خصصهم أبوه لدراسة الفنون البحرية ، يعيش عيشتهم ، ويسير على نسجهم ، و ينظر اليهم كما ينظر الطالب إلى أقرانه وأصدقائه ، ولما أتم دراسته ،

انتظم في خدمة الأسطول قومندان لاحدى البوارج التي كانت ترفع علم مصر فوق ظهر البحار . واعتمد النظام الذي هو أساس الحياة العسكرية . فكان يحترم رؤسائه . ويتساوى في ذلك وزملاءه الضباط ، وما يذكر عنه في هذا الصدد . أنه لما نال حظا من العنون البحرية . وكان وقتئذ « سعيد بك » جعله أبوه معاونا لمعلو شي باشا ناظر البحرية . وقومندان الأسطول وأصدر أمره إليه بأن يمثل لأوامره ويؤدي إليه التعظيم العسكري بوصف كونه رئيسا له وكان ذلك من سداد رأى محمد على إذ عود ابنه على احترام النظام وقد ارتقي سعيد في المراتب البحرية حتى وصل في أواخر عهد أبيه إلى منصب سر عسكر الدونتمه أى القائد العام للأسطول فهذه النشأة كان لها أثرها في إبلافه المبادئ الديمقراطية مما جعله عند ما تولى العرش يميل إلى خير المصريين ويعمل على ترقيةهم وتقديمهم ورفاهيتهم

إصلاحاته الزراعية

بذل سعيد باشا جهودا طيبة لإصلاح حال الفلاحين والترفيه عنهم وتحولهم حق الملكية العقارية للأراضي الزراعية وسن لهذا الغرض قانونه المشهور بالأئحة السعيدية سنة ١٨٥٨ التى تعد أساس التشريع الخاص بملكية الاطيان في القطر المصري وهذا العمل من أعظم إصلاحاته لأن الملكية هى من الدعائم الأساسية للهيئة الاجتماعية وكان الفلاح محروما حق التملك في عهد محمد على وألغى أيضا نظام الاحتكار ذلك النظام الذى كان معمولاً به على عهد محمد على وأخذ في الاضمحلال في أواخر عهده وفي عهد عباس وصار للفلاح حرية التصرف في حاصلاته وحرية اختيار أنواع الزراعة التى يبتغيها وخفف عن الأهالي عبء الضرائب فقد كان عليهم متأخرات من السنين الماضية تجاوز عنها جملة واحدة ولم تكن هذه المتأخرات بالشئ اليسير فقد بلغ مقدارها كما يقول المسيو مريو (١) ٨٠٠,٤٠٠ جنية وهو مبلغ ضخم إذا قيس بثروة مصر في ذلك العصر فاستراح الفلاحون من أعباء المتأخرات القديمة ، التى كان عمال الجباية يرهقونهم للحصول عليها ، ويستولون على حاصلاتهم الزراعية ، ليستخلصوا منها ما تأخر عليهم من الضرائب . ورغب إلى الأهالي سداد الضريبة نقداً لا عيناً ، وهذا التعديل متفرع عن إلغاء

(١) في كتابه (مصر الحديثة) ص : ٦٤ . والمسيو مريو هو من معاصري سعيد باشا وقد زار مصر في عهده

نظام الاحتكار، فبعد أن كانت الحكومة تضع يدها على الحاصلات، وتتصرف فيها وتحاسب الفلاح على السعر الذي تقرره بمطابق إرادتها صار للفلاحين حق امتلاك حاصلاتهم، والتصرف فيها بالبيع، بالسعر الذي يرتضونه، وتسديد الضريبة نقدا ونالوا بذلك حق الملكية العقارية، وملكية الحاصلات، وحرية التعامل فيها، وحياسة ثمنها وصار للفلاح وجود اقتصادى مستقل عن الحكومة، بعد أن كان مستعبدا لها فكان هذا الإصلاح من أسباب نهضة الفلاح، من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية

وقد اقترن تنفيذ هذا الإصلاح، بمصاعب جمّة، لأن الفلاحين لسبق استيلاء الحكومة كل سنة على حاصلاتهم، لم يكن بأيديهم النقد الذى يستطيعون أن يؤدوا منه الضريبة بحسب النظام الجديد، فقرّر سعيد باشا إهمالهم فى الدفع، حتى يتسنى لهم بيع حاصلاتهم الجديدة، وسداد الضريبة من ثمنها. فشعر الفلاحون بالراحة والطمأنينة والرخاء وحسن المعاملة. ووقف تيار الهجرة من القرى

وقد ألقى أيضا ضريبة الدخولية، التى كانت تجبى على الحاصلات والمتاجر مما يتبادلها المدن والقرى فى داخلية البلاد. وهذه الضريبة مصدر إعانات وإرهاق للأهالى، كما أنها كانت عقبة تحوّل دون حرية التجارة الداخلية. إذ كانت الحكومة تقتضى على المتاجر ٢ فى المائة من قيمتها عند دخولها أى مدينة أو قرية. وهذا يؤدى إلى ارتفاع الأسعار. واشتداد الغلاء. وإضعاف حركة التعامل، كما أن طريقة تحصيل هذه الضريبة تنطوى على نوع آخر من الأرهاق. إذ كانت جبايتها موكولة إلى ملّزمين يبتزّون من الأهالى أكثر من قيمتها. فألغوا فيها فيه تخفيف عن الأهلى وتحرير التجارة الداخلية مما كان يعترضها من العقبات والعراقيل

الإصلاح القضائى

وأدخل فى النظام القضائى إصلاحا جليلا، وهو أنه نال من السلطان حق اختيار القضاة، بعد أن كان العمل جاريا، على أن قاضى القضاة المولى من قبل السلطان، هو الذى يعينهم

وهذا الإصلاح، فضلا عما فيه من تحقيق الاستقلال القضائى لمصر، فإنه منع مصدرا من مصادر الفساد، فى النظام القضائى، فإن قاضى القضاة كان يعين

القضاة حسبما تولى عليه أهواؤه ، وكثيرا ما يجعل تعيينهم مقابل جعل من المال ، وفي ذلك من إفساد القضاء ما لا يخفى عن الأذهان ، فكان لعمل سعيد باشا أثر طيب ، في إصلاح هذا الفساد

إصلاحاته الحربية

ويثه الروح القومية في الجيش

اشتهر سعيد باشا بميله إلى الجيش ، ولعل نشأته الاولى على ظهر الأسطول حبت إليه الحياة الحربية ، برية كانت أم بحرية ، فعني بعد أن ولى الحكم بترقية شؤون الجند وكثيرا ما كان يصرف أيامه في معسكر الجيش ، وتعرض عليه شؤون الحكومة ، وهو وسط جنوده ، ويطيب له أن يسير بهم ، متنقلا في أنحاء البلاد

ولقد بذل جهدا كبيرا في سبيل ترقية الجيش ، من الوجهتين المادية والمعنوية وصبغه بالصبغة الوطنية ، ذلك أن الجيش قد اضمحل في عهد عباس الأول وفقد الروح التي كانت تفيض عليه سمات العظمة والبطولة ، في عهد محمد علي وإبراهيم ، ولم يكتف عباس بأهمال شأن الجيش ، بل أفقده الصبغة القومية بأن أدمج فيه نحو ستة آلاف من الجنود الأرناؤود ، وجعلهم خاصة جنود وسلاحهم بالمسدسات ، فكانت لهم في عهده الصولة والسطوة ، وشمخوا بأنوفهم على الأهلين ، جنودا وأفرادا ، وعاتوا في البلاد فسادا بما اشتهر عنهم من العسف والظلم والأرهاق ، وظل هؤلاء الأخطا قوام الجيش المصرى في عهده ، إلى أن ولى سعيد الحكم ، فعمل على أن يرد إلى الجيش صبغته الوطنية ، وبذل جهدا كبيرا في إصلاح حاله

وقرر تقصير مدة الخدمة العسكرية ، وجعلها في الوقت نفسه إجبارية للجميع ، وكان لهذا الإصلاح أثر حسن في ترغيب الانتظام في سلك الجندية إلى الأهلين ، لأن التجنيد بحسب النظام القديم ، كان مقصورا على الفقراء (ولم يزل كذلك مع الأسف) فوقر في أذهان الناس ، أن الخدمة العسكرية سخرة تبتلي بها الطبقات الفقيرة ، ومما زاد في نفور الأهلين منها ، طول مدة التجنيد ، فكان الجنودون تطول غيابهم عن ذويهم ، وكثير منهم كانوا يلقون حتفهم دون أن يعرف أقرباؤهم ما آل إليه مصيرهم فلا إصلاح هذه العيوب قصر سعيد باشا مدة الخدمة العسكرية ، فجعل متوسط الخدمة سنة واحدة ، وبذلك أدخل الطمأنينة إلى نفوس الناس على مصير أبنائهم

المجندين ، وأخذوا يشعرون أنهم سيعودون قريباً إلى قراهم وعائلاتهم . وأمر أن تعمم الخدمة العسكرية بحيث يقترح أبناء المشايخ والعمد كسائر التلاحين ، ولا شك أن هذه الوسيلة من شأنها أن تنهض بمستوى الجندية ، لأن العمدة والمشايخ هم في الجملة خلاصة أعيان البلاد ، فدخلوا أبنائهم في سلك الجندية ، مما يرفع شأنها ويرغب الشباب فيها ، إذ يشعرون أنها واجب عام يشترك فيه الأغنياء والفقراء على السواء .

وعلاوة على ما تقدم ، فإن سعيد باشا عني بترقية حالة الجنود ، من جهة الغذاء والمساكن والملبس وحسن المعاملة ، حتى أخذوا يشعرون بأنهم تحت لواء الجيش ، أحسن حالاً مما كانوا عليه في قراهم ، طعاماً وملبساً ومسكناً ومظهراً .

ولقد كان لهذا الإصلاح ، أثر حسن في تقدم حالة البلاد الاجتماعية ، لأن المجندين إذ كانوا يعودون إلى القرى ، بعد انتهاء مدة خدمتهم ينقلون إليها مبادئ النظام والتقدم والنظافة التي تعودوها في ظل الجندية ولو استمر العمل بهذا النظام طويلاً لألفت الأمة الخدمة العسكرية ولا اعتادها الشبان من مختلف الطبقات .

وكان سيد باشا مائلاً إلى ترقية الضباط المصريين وإعطائهم حقهم في التقدم وفي عهد ارتقى كثير منهم في المراتب العسكرية العالية بعد أن كانت منحصرة في الترك والشراكسة وقد نقل عنه عرابي باشا خطبة القاها في مأدبة بقصر النيل تدل على عواطف وطنية شريفة قال فيها مخاطباً الحاضرين من العلماء والرؤساء والروحانيين وأفراد الأسرة الحاكمة وكبار رجال الحكومة المملوكيين والعسكريين

« أيها الأخوان . إنني نظرت في أحوال هذا الشعب المصري من حيث التاريخ ، فوجدته مظلوماً ، مستعبداً لغيره من أمم الأرض ، فقد توالى عليه دول ظالمة له كثيرة ، كالعرب الرعاة (الهكسوس) والاشوريين والفرس حتى أهل ليبيا والسودان واليونان والرومان . هذا قبيل الأسلام . وبعده تغلب على هذه البلاد كثير من الدول الفاتحة ، كالامويين والعباسيين والفاطميين من العرب ومن الترك والاكراذ والشركس ، وكثيراً ما أغارت فرنسا عليها حتى احتلتها في أوائل هذا القرن في زمن (بونابرت)

وحيث إنني أعتبر نفسي مصرياً ، فوجب على أن أربي أبناء هذا الشعب وأهذه تهمدياً ، حتى أجهله حالاً لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ويستغنى بنفسه عن الأجانب . وقد وطدت نفسي على إبراز هذا الرأي من السكر إلى العمل »

ويقول عرابي باشا في مذكراته تعليقاً على هذه الخطبة : إنه لا انتهى سعيد باشا من إلقاءها خرج المدعوون من الأمراء والعظماء غاضبين حائقين مددوشين مما سمعوا . وأما المصريون فخرجوا ووجوههم تتهلل فرحاً واستبشاراً . ويقول أنه اعتبر هذه الخطبة أول حجر في أساس مبدأ (مصر للمصريين) قال « وعلى هذا يكون المرحوم سعيد باشا هو واضع أساس هذه النهضة الوطنية الشريفة في قلوب الأمة المصرية الكريمة » هذا ما يقوله عرابي ، وهو قول لا غبار عليه . ونضيف إليه أنه لو بقيت هذه الروح سائدة في عهد خلفاء سعيد باشا ، لما كانت البلاد في حاجة إلى شوب الثورة العرابية لأن هذه الثورة قامت في الاصل لتحقيق المبدأ الذي اتبعه سعيد باشا . فلو سار خلفاؤه على هذا المبدأ لثم الغرض الذي دعا اليه العرابيون في سكينته وسلام ، ولكانت البلاد في غنى عن قيام تلك الثورة التي هبما قيل لها أوضدها فلا نستطيع أن نغفل عن تلك الحقيقة المؤلمة ، وهي أنها أفضت بالبلاد إلى الاحتلال الإنجليزي ، وليس يخفى أن الاستقلال والاحتلال خدان لا يجتمعان

إصلاحاته في السودان

اقتبس سعيد باشا عن أبيه ، فضيلة العناية بالسودان . ففي أول عهده بالحكم ، أوفد أخاه الأمير عبد الحام للتفتيش على إدارته وإصلاح شؤونه . ولكن الأمير لم يعطى البقاء فيه

ثم اعترم هو أن يزور السودان بنفسه . ليتنقد أحواله . كما فعل أبوه من قبل . فذهب اليه يصحبه طائفة من خاصة رجاله وأصدقائه ، مثل راجب باشا ، والمسيو فردينان دلسيس ، والدكتور أبياته باشا وأراكيل نوبار بك أخى نوبار باشا وغيرهم ، ووصل إلى الخرطوم يوم ١٦ يناير سنة ١٨٥٧ والتقى بأعيان الأهليين . فقدموا له عرائض يشكو فيها من فداحة الضرائب ، ومظالم الحكام فاستمع لشكاياتهم ، وتألم لحالتهم ، واعترم إصلاح حالتهم فأمر بأعفائهم من المتأخر عليهم من الأموال ، وخفض عنهم الضرائب تخفيضاً عظيماً . ووضع قاعدة ثابتة لقيمة الضرائب بأن جعلها تتبع عدد السواقي في الاطيان ، لأن السواقي تبين مبلغ خصب الارض ودرجة إنتاجها ، فجعل على الارض التي تروىها ساقية واحدة ٢٠٠ قرش وهلم جرا وأما الاطيان التي لاتروي من السواقي فجعل على الفدان الواحد ضريبة تتراوح بين ٢٠ و ٢٥ قرشا . وقرر عزل

الموظفين الترك الذين كان الاهالى يشكون من سوء معاملتهم ، واعتزم تعويد الاهلين حكم أنفسهم ، بإنشاء مجالس بلدية ، مؤلفة من أعضاء من الاهلين يختارونهم من رؤساء العشائر والعائلات (١) ، ورفع المظالم عن الاهلين ، وفك إيسار الكثيرين منهم ، وأمر بإلغاء السخرة ، ونبه على مديرى الاقاليم السودانية بان يحسنوا معاملة الاهلين ، وألا يرهقوهم فى جباية الضرائب ، وأمر أن لا يعهد للحكام الى الجنود فى تحصيل الضرائب ، لما اشتهر عن هؤلاء من القسوة

وأبطل منصب الحاكم العام (حكامدار السودان) وجعل من السودان خمس مديريات مستقلة فى إدارتها ، بعضها عن بعض ، ترجع كل منها فى شؤنها إلى وزارة الداخلية شأن مديريات القطر المصري ، ثم رأى بعد ذلك أن استقلال مديرى الاقاليم ، جعلهم يجنحون إلى الاستبداد والظلم ، وسيئون معاملة الاهلين ، فألغى استقلالهم وأعاد منصب حكامدار السودان ، وقلد موسى باشا حمدى هذا المنصب فكان من أعظم ولاية السودان شأنًا ، وله فيه إصلاحات جمة ، منها أنه عين من الاهلين نظار أقسام ومعاونين ، وعقد ورؤساءهم مجلسًا ، وسن قوانين جديدة ، لتنظيم الضرائب وتسهيل جبايتها ، فنال محبة الاهلين ورضاهم

وقد عقد سعيد باشا الرحلات والاكشافات الجغرافية فى أنحاء السودان ، فكثر عدد المسكنين فى عهده ، واسكنه لم يخذ حذو أبيه فى إيفاد بعثات مصرية كالبعثات التى ألقاها محمد على إلى السودان بقيادة البكباشى سليم بك قبطان أحد ضباط البحرية المصرية ، بل ترك أمر هذه الرحلات للمسكنين الاجانب وهى نقطة ضعف وقع فيها هو واستمايل من بعده

ما له وما عليه

إن سعيد باشا إلى جانب النهضة الوطنية التى ناصرها وعصدها ، قدار تكب غايات لامندوحة عن ذكرها ، حتى يتم لنا وصف عصره وصفًا صحيحًا ، فهو أول من فتح ثغرات التدخل الاجنبى فى كيان مصر ، ورجع ذلك إلى أنه كان شديد الثقة بالاوربيين كثير الرئون إليهم ، فاستغلوا حين ظنهم وضعف إرادته ، ونالوا منه المزايا والمنح العظيمة ، وفى عهده افتتحت مصر مأساة القروض ، بعد أن عاشت بمنجاة منها ، فى عهد

(١) - لى ذلك المسير فرعيان وليس فى كتابه (ذكريات أربعين سنة) ج ٢ ص ٢٨٨

محمد علي وإبراهيم وعباس ، وقد بلغ مجموع ما استدانه سعيد ، من دين ثابت ودون سائرة ١٦٠.٠٠٠ ر ١١ جنيه كما أحصاها مؤلف (تاريخ مصر المالي) (١) . ولا يخفى أن القروض كانت من أهم عوامل التدخل الاجنبي ، الذي أفقد مصر استقلالها المالي ثم السياسي ، وفي ذلك يقول مؤلف تاريخ مصر المالي « إلى سعيد باشا يرجع الفضل المتعس ، في عقد أول قرض اقترضته مصر من أوروبا »

وقال في موضع آخر « لقد استطاع محمد علي ، وابنه الاكبر إبراهيم أن ينهضوا بالبلاد ويجاهدا في سبيل استقلالها ، جهادا كل بالنصر دون أن يكون ليهما من الموارد المالية سوى ميزانية لا تتجاوز خمسين مليون فرنك »

وثمة خطأ آخر ، كانت له عواقب وخيمة على البلاد ، وهو منح الميسو فردنان دلسبيس سنة ١٨٥٤ ، امتياز فتح قناة السويس ، فالقناة من وجهة النظر القومية ، كانت شؤما على مصر ، لأن انكثرا جعلت خطتها في المسألة المصرية منذ فتح القناة ، أن تسعى جهدها في احتلال مصر ، لتضع يدها على القناة ، والارض التي تجتازها ، بحجة حماية الطريق إلى مستعمراتها في الشرق ، وهي وإن كانت حجة واهية ، لأساس لها من الحق ، لكنها الامر الواقع الذي كان يجب على سعيد باشا أن يحسب له حسابا كبيرا قبل أن يقدم على منح امتياز القناة ، والواقع أن انكثرا وإن كانت تتطلع إلى مصر من قبل ، إلا أنها لم تضاعف جهودها لتحقيق مطامعها الاستعمارية فيها ، إلا منذ دخول مشروع القناة في حيز التنفيذ وما فتئت تدأب على تحقيق تلك المطامع حتى تم لها احتلال البلاد سنة ١٨٨٢ . أي بعد ثلاثة عشر عاما من افتتاح القناة ، إذ كان افتتاحها سنة ١٨٦٩ فلو كان سعيد باشا على شيء من القطنة السياسية وبعد النظر ، لأعرض عن هذا المشروع وخاصة لأنه يعلم عن أبيه أنه كان يعارض فيه ، ويعيد القناة - إذا افتتحت بوسفورا نانيا يجعل مصر واستقلالها عرضة للخطر ، لكن سعيدا كان متأثرا من نصائح صديقه الميسو دلسبيس ، فمنحه الامتياز دون أن يبحثه بحثا جديا أو يقدر عواقبه الوخيمة . ويقول دلسبيس في كتابه « أصول قناة السويس » إن سعيد باشا قال له يوما ، بعد أن منحه امتياز القناة « أعترف لك بأنني لم أفكر طويلا في الموضوع وإنما كانت المسألة مسألة شعور »

فلو سلم عهد سعيد من القروض الاجنبية ، ولم يمنح امتياز القناة لكان محتملا أن تتغير المصائر ، وتبديل النتائج في تاريخنا القومي

عبد الرحمن الراعي

(١) هو مؤلف اوروي مجهول بعد كتابه من أهم المراجع في تاريخ مصر المالي على عهد سعيد واسماعيل